العلاقة بين الطبيعية وخلق الإنسان

في الأساطير والمعتقدات والعلم

د . عبد العزيز الياس سلطان (*)

المقدمة

إن صلة الإنسان بالطبيعة صلة وجودية صميمة نابعة من علاقة كونية شاملة، وتفاعل حيوي ضروري ، وقد عبر الإنسان عن هذه الصلة بينه وبين بيئة الطبيعية خاصة الأرض لكونها عنصراً أساسياً أكثر أهمية عبر تاريخه الطويل نظريا وعمليا بأشكال شتى ومفاهيم متعددة وفقا لعقليته الحضارية ومستواه الثقافي، وربما أدرك الإنسان ومنذ وقت مبكر من حياته أنَّ نشأته الأولى كانت من الطبيعة ، وحالما عرف الكتابة عبر عن ذلك وقال بأنه ابن الأرض التي يقف عليها، وقد خلق من الطين وهو مادة أساسية من مكونات الأرض وهذا رأي عبرت عنه معظم الأساطير القديمة وتناولته المعتقدات الدينية ، و أتثبته العلم الحديث، وعلى الرغم من التباين في وجهات النظر حول كيفية أو طبيعة العلاقة بين الإنسان والطبيعة، وخاصة فيما يخص خلق الإنسان والمادة الأولى التي خلق منها سواءً في الأساطير

(*) قسم الآثار - كلية الآداب / جامعة الموصل .

أو المعتقدات الدينية التي استندت إلى الكتب المقدسة، وحتى العلم الحديث فقد أكد على حقيقة واحدة مفادها: أنَّ الإنسان خلق من مادة التراب التي هي العنصر الأساس من مكوناته الطبيعة.

ملخص البحث:

يلخص البحث موضوعا مهما يتعلق بالعلاقة القائمة بين البيئة الطبيعية والإنسان بشكل عام، والطبيعة وقصة خلق الإنسان بشكل خاص، وكيف شغل هذا الموضوع بال الإنسان منذ وقت مبكر لوجوده في الطبيعة، و أحس - وربما بالفطرة- بوجود علاقة قوية بينه وبين الأرض التي يقف عليها قبل أن يتوصل في فترات لاحقة إلى حقيقة أنه جزء منها، وان بناءَهُ المادي يتكون من نفس مكونات الأرض وهو العنصر الأهم في الطبيعة، ومع التطور الحضاري والفكري للإنسان بدا يعبر بصور وأشكال مختلفة عن طبيعة هذه العلاقة، وما أن عرف الكتابة راح يدون آراءه ونظرياته بشان هذا الموضوع الذي جاءت الكتب السماوية مؤكدة وداعمة حقيقة العلاقة بين الإنسان وقصة خلقه والطبيعة التي يتعامل معها، ووردت الكثير من الإشارات التي تقول: ان الإنسان قد خلق من الطين أو من التراب وهذه المادة هي العنصر الأهم في مكونات الطبيعة. وفي فترة متأخرة من تاريخ الإنسان وبعد ان وصل العلم الحديث مراحل متقدمة استطاع ان يثبت ومن خلال التحليل بان مكونات جسم الإنسان هي نفسها موجودة في الطبيعة وبالتحديد في مكونات التربة وليتفق بذلك العلم الحديث مع ما تناقلته الأساطير وأوردته المعتقدات الدينية في ان الإنسان هو ابن الطبيعة وان تكوينه المادي جزء من التكوين المادي للطبيعة.

1. العلاقة بين الطبيعة وخلق الإنسان في الأساطير:

ربما لا نغالي إذا قلنا إنَّ العراقيين القدماء هم أول من قال بأن الإنسان هو ابن الطبيعة وتراب من ترابها، وربما كان ذلك بالفطرة أو بالإحساس الذي كان يشدهم دائما إلى أرضهم التي يجدون فيها وعليها كل أسباب بقائهم وديمومتهم.

وإذا ما أردنا ان نبحث عن فكرة أصل الإنسان وعلاقته بالطبيعة عند العراقيين القدماء وجدنا أكثر من إشارة إلى ذلك وروداً في مؤلفاتهم الأدبية ، وجاء بعضها باللغة السومرية وبعضها باللغة الأكدية ومن أدوار حضارية مختلفة ولا سيما منذ مطلع الألف الثاني ق.م فمن العصر البابلي القديم [1]، وجاءتنا أسطورة خاصة بالولادة كشفت عن جانب مهم في رأي العراقيين القدماء في كيفية خلق الإنسان ومادته الأولى، فترى هذه الأسطورة أن الآلهة الخالقة المسماة مامي (mami) أونامو- كما في بعض الروايات - قد اضطلعت بهذه المهمة بناءا على طلب الإله (انكي)[2]. والآلهة الأخرى ، وتم خلق الإنسان وفقا لهذه الأسطورة من الطين وقد جاء فيها نصا.

((يا أمي إنَّ الكائن الذي نطقت باسمه وقد وجد فاسبغي عليه صورة الآلهة ، امزجي لب الطين الكائن فوق اللجة، وسيقوم المصممون الطيبون النبلاء بتكثيف

(1) يطلق مصطلح للعصر البابلي القديم على الفترة الزمنية الواقعة ما بين نهاية سلالة أور الثالثة سنة 2006 ق. م، وبين نهاية سلالة بابل الأولى في حدود سنة 1594 ق.م، للمزيد انظر باقر طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط1، بغداد 1973، ص 404 وما بعدها.

(2) أنكي (أيا) اله سومري موكل بمياه الغمر، أو كما يعبر عنه بالسومرية (اوبزو) وكان أنكي اله الحكمة المسؤولة بالدرجة الأولى عن تنظيم شؤون الطبيعة وفقاً لقرارات الإله أنليل للمزيد ينظر صموئيل كريمر، السومريون تراثهم وحضارتهم، ترجمة فيصل الوائلي، الكويت، 1973، ص 162.

الطين وأنت اجعلي الأعضاء تبرز للوجود وستقوم (ننماخ) بالعمل بعدك ، الآلهات سيقفن إلى جانبك عندما تقومين بالصياغة ، يا أمي عيني سمته وننماخ ستسبغ عليه شكل الآلهة إنه الإنسان ..))[3]. وفي أسطورة عراقية أخرى نجد أن خلق الإنسان قد كان من الطين (التراب)، ولكن هذه المرة بعد خلطه بدم أحد الآلهة التي تم التضحية بها لهذا الغرض وجاء فيها: ((أنتِ الرحم الأول الأزلي، أنتِ خالقة البشرية فاخلقي (للو) (الإنسان) ليحمل النير ففتحت (ننتو) فاها وخاطب الإله (ايا) الآلهة العظام ليضحي أحد الآلهة ولتمزج الآلهة (ننخرساك) الطين بدمه فيمتزج الإله بالإنسان)) [4]، وقد كشفت هذه الأسطورة جانباً آخر متعلقاً بخلق الإنسان وهو أنه خلق ليحمل العبء عن الآلهة في الأعمال التي كانت تقوم بها في الأرض.

ومن العصر الآشوري الحديث (القرن السابع ق.م) وردت رواية أخرى لنفس الأسطورة وهي أنَّ الآلهة (مامي) عند خلقها للإنسان قامت بجمع أربع عشرة قطعة من الطين وضعت سبعا منها إلى اليمين وسبعا منها إلى اليسار، وفصلت بين المجموعتين باجر (لبن محروق) فخلقت من مجموعة الذكور ومن مجموعة الإناث[5].

أما الحضارة المصرية فلم تردنا فيها قصة خاصة بخلق الإنسان، كما جاء في حضارة العراق إلا ان ذلك لا يعني عدم وجود إشارات متناثرة هنا وهناك تعبر عن الموضوع، فهنالك مثلا إشارة إلى اله كبش اسمه (خنوم) زعموا أنه كوَّن البشر

(3) عكة، أسعد محمد، أساطير الخلق وأصل الحياة، مجلة آفاق عربية، العدد 11، 1982، ص 82.

(4) باقر، طه، مقدمة في أداب العراق القديم، بغداد، 1976، ص 85-86.

(5) المصدر نفسه، ص 85-86.

على دولاب خزاف ، مما يؤكد ان مادته كانت من الطين[6].

ولم يختلف الإغريق عن العراقيين القدماء الذين سبقوهم بقرون عديدة، وربما تأثروا ببعض أفكارهم في الاعتقاد بالصلة القوية بين الطبيعة والإنسان، لا بل بينهما وبين كل شيء في الوجود حيث اننا مجد ان عبارة الأرض ألام تتردد فيها الكثير من الأساطير الإغريقية، فقد جاء في إحداها على سبيل المثال: ((نشاة الأرض الجملية بصدرها الواسع ، وهي الأساس المكين لكل الأشياء))[7].

وتتحدث أسطورة إغريقية أخرى عن العلاقة بين الطبيعة والإنسان وتقول هذه الأسطورة: إنَّ الأرض هي أمه ولكن هذه المرة ليس التراب (الطين) أساس تكوينه، وانما الحجارة، ومما جاء فيها: ((الأرض هي أم الجميع وعظامها هي الحجارة، تستطيع أن تقذف هذه الحجارة حالما تسقط على الأرض تأخذ شكل البشر وقد أطلق عليهم اسم الناس الحجريين، وقد كانوا جنسا صلبا شديد الاحتمال، وسكنوا الأرض التي كانت ترزخ تحت وطأة الفراغ والوحشة)[8].

وتبقى فكرة أن الطبيعة هي أم الإنسان وإنه تراب من ترابها متأصلة حتى في نفوس القبائل البدائية في الوقت الحاضر، فعلى سبيل المثال هناك أسطورة طريفة يعتقد بها (السلوك) وهم من القبائل البدائية في منطقة النيل الأبيض جنوب السودان، إن الإله (جووك) كان أثناء خلقه للإنسان يجوب أنحاء الأرض، ففي أرض البيض

(6) فرانكفورت، هـ، وآخرون، ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، ط2، بيروت، 1980، ص 70.

(7) عكة، أسعد محمد، مصدر سابق، ص 82.

(8) باقر، طه، مقدمة في أدب العراق القديم، مصدر سابق، ص 82.

وجد الأرض بيضاء فخلقهم منها، وفي أرض السود وجد التربة السمراء فخلقهم منها .....وهكذا[9]. وتعبر هذه الأسطورة عن مدى عمق العلاقة بين طبيعة التربة ولونها ولون الإنسان المخلوق منها.

2. العلاقة بين الطبيعة وخلق الإنسان في المعتقدات

ان ما جاء في المعتقدات الدينية فيما يخص قصة خلق الإنسان والعلاقة بينه وبين الطبيعة لم يكن ليختلف عما جاء في الأساطير من حيث المفهوم العام، وان اختلف عنه في طريقة الطرح، فما جاء في الكتب السماوية المقدسة يؤكد على أن الإنسان ابن الأرض وانه تراب من ترابها، وما جاء في التوراة في هذا الشان والذي ربما استند إلى بعض الأفكار الدينية التي سبقت كتابتها والتي استند إليها العراقيون القدامى في أساطيرهم أيضا خصوصا أن العراق بلد الأنبياء ومنه انطلق إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء، نقول: إن ما جاء في (التوراة) بشأن علاقة الإنسان بالطبيعة وانه خلق من تراب من ترابها لم يكن ليختلف عما ذهب إليه العراقيون القدماء، وما جاء في الإصحاح الثاني من سفر التكوين يؤكد ذلك، فقد ورد نصا: ((إن الرب الإله جبل الإنسان ترابا من الأرض ونفخ في انفه نسمة حياة فصار الإنسان نفسا حية))[10]، وتورد التوراة السامرية القصة في سياق لا يختلف عما سبق فقد جاء فيه: ((وخلق القديم الله آدم ترابا من الأرض ونفخ في نفسه نسمة الحياة وصار آدم جسما حيا))[11].

وتذهب التوراة إلى القول بأن الطبيعة أو الأرض ليست المصدر الأساسي

(9) القلماوي، سهير، حول خلق آدم، مجلة الكاتب المصري، العدد 1، اكتوبر، 1945، ص 49.

(10) الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح الثاني، ص 4.

(11) التوراة السامرية، سفر التكوين، الإصحاح الثاني، ص 37.

الذي خلق منه الإنسان فحسب، بل خلق منها كذلك سائر المخلوقات الأخرى وقد ورد هذا في أحد نصوصه: ((وقال الرب الإله ليس جيدا أن يكون آدم وحده فاصنع له معينا نضيره وجبل الرب الإله من الأرض كل الحيوانات البرية وكل طيور السماء وأخذها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها))[12].

أما القران الكريم فقد كان له القول الفصل في التأكيد على الصلة القوية بين الطبيعة والإنسان، وذلك عندما بدا خلقه من طين قال تعالى ((الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسَانِ مِن طِينٍ)) [13] فإن هذا الخلق كان من طين من حما مسنون أي متغير حتى إذا صار ذلك الطين صلصالا أي يصل إذا ضرب كالفخار نفخ فيه من روحه فإذا هو إنسان حي وهذا ما ورد في قوله تعالى: ((وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ * وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قالَ لم أكُن لأسْجُدَ لِبَشرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَا مَسْنُوٍم))[14].

(12) الكتاب المقدس، سفر التكوين، الاصحاح الثاني، ص4.

(13) القرآن الكريم، سورة السجدة، الآية 7.

(14) القرآن الكريم، سورة الحجر، الآيات من 26-32.

ويتكرر ذكر خلق الإنسان من الطين في آيات كثيرة أخرى منها في قوله تعالى: ((فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ))[15].

ولم تغفل السنة الشريفة التطرق إلى العلاقة بين الطبيعة والإنسان حيث يورد القرطبي في قصة خلق آدم حديثا طويلا عن ابن مسعود وابن عباس ومن بعض ما جاء فيه ((...فبل التراب حتى عاد طينا لازبا ، ثم ترك حتى انتن...))[16] ثم ذكر أن الجسد صار صلصالا.

ولم يشذ العرب عمن سبقهم من العراقيين القدماء في القول بالعلاقة الوثيقة بين الطبيعة والإنسان، فقد كانت فكرة أمومة الأرض معروفة وشائعة عندهم، وربما كان قول أمية بن أبي الصلت خير شاهد على ذلك إذ يقول[17].

(15) القرآن الكريم، سورة الحجر، الآيات من 71-76.

(16) النجار، عبدالوهاب، قصص الانبياء، ط2، بيروت، د-ت، ص16.

(17) خان، محمد عبدالمعيد، الأساطير والخرافات عند العرب، بيروت، 1980، ص 161.

والأرض معقلنا وكانت امنا

فيها مقابرنا وفيها نولد

وإذا ما أردنا ان نعرف رأي العلماء المسلمين في كل ما تقدم لا نجده يختلف عنه، وأنه ينسجم مع ما ورد في القران والسنة، وأنهم يؤكدون على صلة الإنسان بالطبيعة وعلاقته القوية بالأرض، فهذا الرازي مثلا يجيب يحيى ابن معاذ الذي يسأله ان ابن آدم يدري ان الدنيا ليست بدار قرار فلم يطمئن إليها ؟

فيجيبه: لأنه منها خلق ، فهي أمه ، وفيها نشا فهي عيشه، وإليها يعود فهي كفاته[18].

3. العلاقة بين الطبيعة وخلق الإنسان في العلم الحديث:

اما موقف العلم الحديث من العلاقة بين الطبيعة والإنسان وخصوصا فيما يتعلق بالمادة التي خلق منها الإنسان فجاء منسجما مع كل ما تقدم ومع ما ورد في القران الكريم بالذات، حيث أثبت العلم الحديث أن الإنسان يتكون من خلاصة التربة الأرضية وذلك بعد التحليل الكيمياوي لجسم الإنسان الذي أثبت أنه يتكون من نفس عناصر التربة وهي الأوكسجين والهيدروجين اللذين يشكلان الماء الذي يدخل في تركيب جميع الكائنات الحية، وتلك حقيقة أخرى اقرها القران الكريم قبل أن يثبتها

(18) المصدر نفسه، ص 161.

العلم الحديث بعدة قرون، ومصداق ذلك في قوله تعالى: ((أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ)) [19]، ثم يشترك الكلور مع العنصرين السابقين ليؤلف معهم المركبات العضوية: البروتينات، والكاربوهيدرات ، والدهنيات ، والفيتامينات ، والهرمونات، وغيرها ثم تأتي بعدها سبع مواد جافة موجودة في مركبات التربة هي: الكلور، والكبريت ، والفسفور، والمغنيسوم، والبوتاسيوم، والكالسيوم، والصوديوم، ومن ثم سبع مواد جافة بنسب اقل موجودة هي الأخرى في مركبات التربة وفي جسم الإنسان وهي: الحديد، والنحاس ، واليود، والمنغنيز، والزنك، والكوبلت، والمولبديوم وأخيرا ستة عناصر نادرة موجود هي الأخرى في الطبيعة بشكل أو بآخر، التي جعل الله الموت دليلا عليها، فالموت نقض لعملية الحياة ونقض كل شيء هو عكس بنائه لذا فالموت يبدأ بأخر نقطة وصلت إليه عملية الخلق فأول ما يحدث للإنسان عند الموت هو خروج الروح (وهي آخر ما دخل) ثم تتابع مراحل الخلق معكوسة كما يوضحها المخطط الآتي[20]:

(19) القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآية 30.

(20) الطب في ظلال القرآن والسنة، المعرض السنوي، كلية الطب، جامعة الموصل، 2002، ص3.

تـــــــــــراب + مـــــــــــــاء ←——طيـــــــــــن

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ)[21] (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)[22] (إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لازِبٍ)[23]

حمـــا مســـــنون يجمـــــد صلصـــــــــــــال +

(إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)[24] (خَلَقَ الإنسانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ)[25]

نـفخ الـــروح ←——— إنسان حـي ←———

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي)[26] (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ)[27]

خروج الروح ←——— تصلب الجسد يتعفن رمة

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا)[28] (صلصال) (حما مسنون)

يتبخر بعض الماء طين يتبـخر اكثذر تـــراب

وهكذا ووفقا لهذه العملية يعود الإنسان من حيث بدا ترابا أي جزءاً من الطبيعة التي خلق منها مصداقا لقوله تعالى: ((مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى))[29]

(21) القرآن الكريم، سورة غافر، الآية 67.

(22) القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآية 30.

(23) القرآن الكريم، سورة الصافات، الآية 11.

(24) القرآن الكريم، سورة الحجر، الآية 28.

(25) القرآن الكريم، سورة الرحمن، الآية 14.

(26) القرآن الكريم، سورة الحجر، الآية 29.

(27) القرآن الكريم، سورة الحج، الآية 5.

(28) القرآن الكريم، سورة الزمر، الآية 42.

(29) القرآن الكريم، سورة طه، الآية 55.

Abstract

The Relation between Natural Environment and Man's Creation in Myths and creeds

Dr. Abd Al-Aziez Alyas(*)

This research summarizes the relation between nature and man's creation according to mythology of ancient nations especially those who had civilization before others, Mesopotamia for example. This question is discussed in detail. The ancient myths indicate that man is "the son of the earth" and he is from its mud. Then the revealed religions came to confirm this fact throughout the heavenly books like the holy Quran and the Torat. In the Glorious Quran some verses mention this fact. Finally , modern science agrees with this analysis and we find kind of agreement between the ancient mythology and creed and with what science proves to be true.

(*) College of Arts / University of Mosul.